

سياحة أوليا جليبي..

د. محمد صابر عرب

الحياة في مجملها رحلة اكتشاف وبحث؛ وقد عرف الإنسان هذه الحقيقة منذ أن وطأت قدماه الأرض، وفي سبيل التعرف على تفاصيل الحياة استنهض الإنسان قدراته وإمكاناته الخاصة في محاولة لقهر الصعاب.

وفي تاريخ البشرية رحلات غيرت تاريخ الإنسان من بينها رحلات الكشوف الجغرافية وكشوف كوكب الأرض وحياة الشعوب وعاداتها وأسننتها ومعارفها... إلخ. ولعل رحلة الإيطالي الشهير ماركو بولو (١٢٥٤ - ١٣٢٤ م) واحدة من أشهر رحلات المعرفة في العالم، كما أن رحلة ابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٨) تعد من أعظم الرحلات عن الإطلاق.

لقد أفادت هذه الرحلات في معرفة أصول السلالات البشرية وعادات الشعوب والتقاليد والأخلاق، وهكذا حظيت كتابات بعض الرحالة بشهرة هائلة بسبب شغف الناس للتعرف على البشر وعادات الشعوب وأسننتهم ومعارفهم ودياناتهم... إلخ.

ولعل من أهم الرحلات التي لم تحظ بقدر مناسب من الشيوخ والانتشار على الرغم من أهميتها هي تلك الرحلة الطويلة الشاقة التي قام بها الرحالة العثماني "أوليا جلبي"؛ الذي ولد في استانبول ١٦١١م، وكان لديه شغف منذ طفولته إلى السفر والترحال، وقد جاب مناطق الأناضول ولم يبلغ التاسعة عشرة من عمره، كما تجول في العديد من المناطق التابعة للإمبراطورية العثمانية وقتئذٍ إما مرافقاً لبعض الولاة، أو مشاركاً في بعض المعارك، أو حاملاً للبريد، وبعد حياة حافلة بالترحال توفي أوليا جلبي بعد أن أتم رحلته إلى مصر والسودان والحبشة، ثم عاد إلى مصر حيث انقطعت أخباره بعد هذه الرحلة الطويلة التي استمرت ثمان سنوات (١٦٧٢ - ١٦٨٠) وغالباً ما يكون قد توفي عام ١٦٨٢، ولم يعرف هل هو توفي في مصر أو في تركيا.

لقد عاش أوليا جلبي ما يقرب من السبعين عاماً أنفق منها نصف قرن سائحاً متنقلاً، مسجلاً انطباعاته عن البشر والأرض والحروب والمكائد التي امتلأت بها صدور العثمانيين، وقد أورد ذلك كله في كتابه الشهير: "سياحتنامه"؛ الذي يحتوي على عشرة مجلدات أكملها ووضع لمساتها الأخيرة قبل وفاته مباشرة.

أعتقد أن أوليا جلبي يعد أشهر رحالة تركي، بل ومن أشهر الرحالة المسلمين عبر التاريخ، ربما تأتي أهميته بعد ابن بطوطة، وقد ذاعت شهرة الرجل كرحالة في القرن السابع عشر الميلادي، وقد استحوذ على اهتمام كبار المستشرقين والمؤرخين والجغرافيين وعلماء الاجتماع لأهمية كتاباته واتساع رقعة البلاد التي زارها وقوة ملاحظاته ودقة المعلومات التي أوردها، لذا جاءت رحلته بمثابة دراسة شاملة للأرض والبشر والزرع والطقس والعادات... إلخ.

لقد اعتمد أوليا جلبي في مصادره التي استقى منها معلوماته على مشاهداته أولاً، ثم على القراءة وخصوصاً الروايات الشفهية التي أولاها عناية خاصة، ولعل من أهم مصادره التي اعتمد عليها في كتابة المجلد العاشر من رحلته؛ والذي خصصه لرحلته إلى مصر والسودان والحبشة؛ والتي امتدت من ١٦٧٢ - ١٦٨٠ فقد اعتمد على ما كتبه المقرئ الذي كان يجيد العربية والقبطية والعبرية والسريانية والبهلوية واللاتينية واليونانية، كما رجع إلى كتابات السيوطي، وابن عبد الحكم، وابن الكندي، نصر الدين الكرمانلي، وابن دقماق، وابن الجوزي، وابن كثير... إلخ.

ولم يفته الاعتماد على الخرائط ودفاتر الوثائق والمدونات وسجلات الأوقاف ودفاتر الأرض وكتب التاريخ والجغرافيا وكتب الصوفية. وكان أوليا

جلبي يقوم برحلاته بصحبة أحد رجالات الولاية في كل البلاد التي زارها أو مصاحباً للجيش العثماني أثناء دخوله هذا البد أو ذاك، أو حاملاً للبريد أحياناً.

لقد زار الرجل بلغاريا والقازاق في روسيا والبوسنة والقيرم وبلجراد، واشترك في الحرب ضد النمسا، وشاهد بوهيميا (النمسا والمجر) والسويد حتى هولندا وفيينا، وطاف الأناضول، كما زار الأفلاق والبغدان (رومانيا) واليونان والمورة وكريت وبلاد الأرناءوط (ألبانيا) وإيران والعراق والحجاز وسوريا ومصر.. وصولاً إلى الحبشة.

تأتي أهمية رحلة أوليا جلبي إلى مصر باعتبارها أشهر رحلة قام بها أي رحالة إلى مصر خلال القرن السابع عشر، بعد أن أكتسب الرجل علماً وخبرة لكي تكون نهاية المطاف حيث توفي بعدها مباشرة.

إن ما أورده هذا الرحالة الشهير عن مصر خلال القرن السابع عشر يكاد يكون في مقدمة المصادر سواء من حيث العادات والتقاليد؛ أو من حيث الحياة الاجتماعية أو عادات المصريين أو الحياة العلمية... إلخ، أعتقد أن في غيبة شاهد عيان كأوليا جلبي كان من الممكن أن تتبدد العديد من التفاصيل عن تاريخ مصر والسودان والحبشة، وخصوصاً وقد كان الرجل على درجة هائلة من

الذكاء وقوة الملاحظة والموضوعية في الحكم على الأشياء ونقل الواقع بصورة غاية في الدقة.

ويبدو أن الرجل كان صاحب نكته وطرفة؛ لذا كان مغرمًا بتسجيل المواقف الغربية والظرفية. ولقد أصدرت دار الكتب المصرية الجزء العاشر من هذه الرحلة الكبيرة بترجمة رفيعة للمرحوم محمد علي عوني، والدكتور أحمد السعيد، وتقديم الدكتور أحمد فؤاد متولي.

أعتقد أن قراءة هذا العمل تعد سياحة ممتعة لرجل اتسمت كتاباته بالدقة والوعي وتسجيل الأحداث، وكأن أوليا جلبي راح يحمل كاميرا يصور من خلالها الواقع بكل ذكاء ومهارة شديدين.

د. محمد صابر عرب
رئيس الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق
القومية المصرية

Email: chairman@darelkotob.gov.eg

